# استنوق الجمــــل...

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال الشاب : لا قِبَل لي بهذا التعب المُعنِّي الذي يسمّونه « الزواج » فما هو إلا بيت ثقله على شيئين : على الأرض ، وعلى نفسي ؛ وامرأة همها في موضعين : في دارها ، وفي قلبي ؛ وما هو إلا أطفال يلزمونني عمل الأيدي الكثيرة من حيث لا أملك إلا يدين اثنتين ، وأتحمل فيهم رَهَقاً شديداً كأنما أبنيهم بأيامي ، وأجمع هموم رؤوسهم كلها في رأس واحد هو رأسي أنا ؛ يُولَد كلٌّ منهم بمعدة تهضم لتوّها وساعتها ، ثم لا شيء معها من يد أو رجل أو عقل . إلا هو عاجز لا يستقلّ ، متخاذل لا يطيق ولا يقدر .

قال : وإذا كان أول الزواج أيْ عَسَلُه وحَلْواه أنه امرأة تُذهب عُزوبتي — فأنا وأمثالي ما نزال في عسل وحلوى ؛ ولكل وقت زواج ، ولكل عصر أفكار ، وما أسخف الليالي إذا هي ترادفت على ضرب واحد من أحلامها ، فهذا يجعل النوم حكماً بالسجن عشر ساعات . . . !

قال : وإذا أردت أن تستكشف القصة فاعلم أننا نحن العزّاب قوم كرجال الفن ؛ رذيلتهم فنّيّة ؛ وفضيلتهم فنّيّة ، فتلك وهذه بسبيل ؛ وكل شيء في الفن هو لوضعه منه لا من غيره ؛ فاذا قلت : هذا خالٍ من الفضيلة عار من الأدب ، وعِبْت الفن لذلك — فما هو إلا كَعَيبك وجه المرأة الجميلة لأنه خالٍ من لحية ..!

هات الظلام وسواده ، فانه لون كالنور وإشراقه ، لابدّ من كليهما ؛ إذ المعنى الفنيُّ في تناسب الأشياء لا في الأشياء ذاتها ؛ ويد الفنّيّ كيد الغنيّ ؛ هذه لا يقع فيها الذهب إلا ليتمدد ثم يتمدد ؛ وتلك لا تقع فيها المرأة إلا لتتمدد ثم تتمدد ؛ وفي كل دينار قوة جديدة ، وفي كل امرأة فنّ جديد .

قال : ومذهبنا في الحياة أن نستمتع بها ضروباً وأفانين ؛ من أطاق أنواعاً لم يقتصر على نوعين ، ومن قدر على نوعين لم يرض الواحد ؛ ولو أن زوجة كانت من أشعة الكواكب أو من قطرات الندى لثقل منها على حياتنا ما يثقل من الحديد والصوّان ؛ إذ هي لا تلد أشعة كواكب ولا قطرات ندى ، وحسب الجسد برأس واحد حملاً .

قال : ومن الذي تعرض عليه الحياة ســـلامها وتحياتها وأشواقها في مثل رسالة غرام ثم يدع هذا ويسألها غضبها وخصامها ولجاجتها في مثل قضية من قضايا المحاكم ، كل ورقة فيها تلد ورقة . . !

ثم قال الشاب : لا تحسبنّ أن المرأة هي السافرة عندنا ، ولكنّ اللذة هي السافرة ؛ وما أحكم الشرع ! أقول لك وأنا محام يقرر الحقيقة : — ما أحكم الشرع الذي لم يُرَخّص في كشف وجه المرأة إلا لضرورة ، فان الواقع في الحياة أن هذا الكشف كثيراً ما يكون كنقب اللص على ما وراء النقب ؛ وإذا كسر ما فوق القُفل من الخزانة المكتنز فيها الذهب والجوهر فالباب الحديد كله سخرية وهزؤ من بعد . . !

***

هذه عقلية شابّ محامٍ طوى عقلَه على الكتب القانونية وطوى قلبه على مثلها من غير القانونية . وليس يمترى أحد في أنها عقلية السواد من شبابنا المتقف الذي لبس الجلد الأوربي . ومن البلاء على هذا الشرق أنه مابرح يناهض المستعمرين ويواثبهم غافلاً عن معانيهم الاستعمارية التي تناهضه وتواثبه ، جاهلاً أن أوربا تستعمر بالمذاهب العلمية كما تستعمر بالوسائل الحربية ؛ وتسوق الأسطول والجيش ؛ والكتاب والأستاذ ، واللذة والاستمتاع ، والمرأة والحب . ولو أن عدواً رماك بالنار فاستطارت في ثيابك أو متاعك لما دخلك الشك أن عدوك هو النار حتى تفرغ من أمرها . فكيف لعمري غفل الشرقيون عن أخلاق ناريّة حمراء يأكلهم بها المستعمرون أكلاً كأنما ينضجونهم عليها ليكونوا أسهل مساغاً ، وألين أخذا ، وأسرع في الهضم .

لم أفهم أنا من كلام صاحبنا الشاب ومعانيه إلا أن أوربا في أعصابه ، وأما مصر ونساؤها ورجالها فعلى طرف لسانه لا تكون إلا صَيْحة ؛ وليس بينه وبينها في الحياة عمل إلا من ناحية لذته بها ، لا من ناحية فائدتها منه .

وتلك المعاني كلها مشتق بعضها من بعض ، ومرجعها إلى

أصل واحد ، كالأمراض التي تبتلى الجسم يُجهّد شيء منها لشيء ، ما دامت طبيعة هذا الجسم زائغة أو مختلة ، أو متراجعة إلى الضعف ، أو ذاهبة إلى الموت .

وأولئك شبان وقف بهم الشباب موقفاً بلادة ، فلا يخطو الى الرجولة ، ولا يكمل بنموّه الاجتماعي كما يكمل الرجل الوطني ، فمن ثمّ يكون خوّاراً لا يستطيع أن يحمل أثقالا مع أثقاله ويستوطىء العجز والخمول فلا يكون إلا قاعد الهمة رخو العزيمة ، قد استنام الى أسباب عجزه وتخاذله ، ولا يكون في بعض الاعتبار إلا كالمريض يعيش بمرضه حميلةً على ذويه مُضجِعةً لا يمشي ، نئومةً لا ينهض ، مستريحاً لا يعمل .

وبهذه الكتلة الاجتماعية في الشبان يبدأ الشعب يتحول من داخله فينصرف عن فضائله ويتخذ في مكانها فضائل استعارة يقلّد فيها قوما غير قومه ، ويجلبها لبيئة غير بيئته ، ويقسرها على أن تصلح له وهي فساد ، ويُكرهها على أن تنفعه وهي ضرر ، وتلك حالة يغامر فيها الشعب بكيانه فلا تلبث أن تَصْدَعه وتُفرّقه .

ولو أن في السحاب مطرا وغيثا لما كان له في كل ساعة لون مصبوغ ، ولو أن في الشباب دينا لما صبغته تلك الاخلاق الفاسدة ، وما ذهاب الحارس عن مكان إلا دعوة للصوص اليه ، وهل كان الدين إلا واجبات وتبعات وقيودا يراد من جميعها إعداد الانسان لأمثالها في الاجتماع ، حتى يقر في إنسانيته الصحيحة على النحو الذي يصلح له منفرداً ويصلح له مجتمعاً ؟ فليست الزوجة وحدها هي التي خسرت الشاب بل خسره معها الوطن والدين والفضيلة جميعا ، وبهذا انعكس وضعه من الجماعة ، فوجب في رأيه أن تُسخَّر الجماعة له وأن يستقل هو بنفسه . وبهذا العكس وهذا السقوط وهذا الاستمتاع الذي يجد سعادته في نفسه أصبح أولئك الشبان كأنما حقهم على المجتمع أن يقدم لهم بقايا لا زوجات . . . . بقايا حتى من الزوجات . . . !

قَبّحَ الله عصرا يجهل الشاب فيه أن الرجل والمرأة في الوطن كلتان تفسر الانسانية إحداها بالأخرى تفسيرا إنسانيا دينيا بالواجبات والقيود والأحمال ، لا بالأهواء والشهوات والانطلاق، كما تفسِّر الحيوانيةُ الذكر والأنثى .

والنفس الدنيئة أو المنحطة في أخلاقها ومنازعها من الحياة لا تكون إلا دنيئة أو منحطة في أحلامها وأخيلتها الروحية ، دنيئة كذلك في طاعتها إن قضت عليها الحياة بموضع الخضوع ، دنيئة في حكمها إن قضت لها الحياة بمنزلة من السلطة . ولو تنبهت الحكومة لطردت من عملها كل موظف غير متأهل ؛ فانها إنما تستعمل شرا لا رجلا يمنع الشر ، وكل شاب تلك حاله هو حادثة ترتدف الحوادث وتستلزمها ، وما يأتي السوء إلا بمثله أو بأسوأ منه .

* * *

ليس للزواج معنى إلا إقرار طبيعة الرجل وطبيعة المرأة في طبيعة ثالثة تقوم بالأثنتين معا ، وهي طبيعة الشعب . فمن سقوط النفس ولؤمها ودناءتها أن يفرّ الشاب القوي من تبعة الرجولة ، فلا يحمل ما حمل أبوه من واجبات الانسانية ؛ ولا يقيم لوطنه جانبا من بناء الحياة في نفسه وزوجه وولده ، بل يذهب يجعل حظ نفسه فوق نفسه وفوق الانسانية والفضيلة والوطن جميعا ، ولا يعرف أن انفلاته من واجبات الزواج هو إضعاف في طبيعته لمعنى الاخلاص الثابت ، والصبر الدائب ، والعطف الجميل في أي أسبابها عرضت .

ومن فُسولة الطبع ولؤمه ودناءته أن يهرب هذا الجندي من ميدانه الذي فرضت عليه الطبيعة الفاضلة أن يجاهد فيه لأداء واجبه الطبيعي متعلّلا لفراره المخزي بمشقة هذا الواجب وما عسى أن يعاني فيه كما يحتج الجبان بخوف الهلاك وعناء الحرب .

ومن سقوط النفس أن يرضى الشبان كساد الفتيات وبَوارَهن على الوطن ، وأن يتواطأوا على نبذ هذه الأحمال وإلقائها في طرق الحياة وتركها لمقاديرها المجهولة كأنهم أصلحهم الله لا يعلمون أن ذلك يضيع بأخواتهم بين الفتيات ، ويضيع بوطنهم في أمهات الجيل المقبل ، ويضيع بالفضيلة في تركهم حمايتها وتخليهم عن حمل واجباتها وهمومها السامية . إن الجمل اذا استَنْوَق تخنث ولان وخضع ، ولكنه يحمل ، وهؤلاء إذا استنوقوا تخنثوا ولانوا وخضعوا وأبوا أن يحملوا .

ومن سقوط النفس في الرجل النّكس العاجز المقصّر أن يحتج لعزوبته بعلمه وجهل الفتيات ؟ أو تمدنه وزعمه أنهن

لم يبلغن مبلغ الأوربية ، ولايدرى هذا المنحط النفس أن الزواج فى بناء الانسانى الاجتماعى هو الشكل الآخر للاقتراع العسكرى ، كلاهما واجب حتم لايعتذر منه إلا بأعذار معينة ، وماعداها فجبن وسقوط وانخذال ولعنة على الرجولة .

ومن سقوط النفس أن يغنى الشابُّ عن الزواج لفجوره فيقره ويمكن له ، وكأنه لايعلم أنه بذلك يحطم نفسين ، ويحدث جريمتين ، ويجعل نفسه على الدنيا لعنتين .

ومن سقوط النفس أن يغتر الشاب فتاةً حتى إذا وافق غرتها مكر بها وتركها بعد أن يلبسها عارها الأبدى ؛ فما يحمل هذا الشاب إلا نفس لص خبيث فاتك ، هو أبداً عند من يسرقهم فى باب الخسائر والنكبات ، لا فى باب الربح والكسب ؛ وعند المجتمع فى باب الفساد والشر ، لا فى باب المصلحة والخير ؛ وعند نفسه فى باب الجريمة والسرقة ، لا فى باب العمل والشرف .

* * *

فسقوط النفس وانحطاطها هو وحده نكبة الزواج فى أصلها وفروعها الكثيرة التى منها المغالاة والشطط فى المهور ، ومنها بحث الشاب عن الزوجة الغنية وإهمال ذات الدين والأصل الكريم لفقرها ، ومنها ابتغاء الزوجة رجلاً ذا جاه أو ثراء وعزوفها عن الفاضل ذى الكفاف أو اليسير على غنيٍّ فى رجولته وفضائله ، كأنما هو زواج الدينار بالسبيكة ، والسبيكة بالدينار ، وكأن الطبيعة قد ابتليت هى أيضاً بالسقوط ، فأصبحت تعتبر الغنى والفقر ، تجعل فى دم أولاد الأغنياء روح الذهب واللؤلؤ والماس ، وتلقى فى دم أولاد الفقراء روح النحاس والخشب والحجارة . . . على حين أن الجميع مستيقنون لايتدافع اثنان منهم فى أن الطبيعة لاتبالى إلا بوراثة الآداب والطباع .

وأعظم أسباب هذا السقوط فى رأيى هو ضعف التربية الدينية فى الجنسين ، وخاصة الشبان ؛ ظناً من الناس أن الدين شأن زائد على الحياة ، مع أنه هو لا غيره نظام هذه الحياة وقوامها فى كل مايتصل منها بالنفس . وليست الدنيـــة الصحيحة كما يحسب المفتونون هى نوع المعيشة للحياة ومادتها ، بل نوع العقيدة بالحياة ومعانيها . والى هذا ترمى كل مبادىء الاسلام ؛ فان هذا الدين القوى الانسانى لايعبأ بزخارف كهذه التى تتلبس بها المدنيـة الأوربية القائمة على الاستمتاع وفنون اللذات وانطلاق الحرية بين الجنسين ؛ فهذا بعينه هو التحطيم الانسانى الذى ينتهى بتهدم تلك المدنية وخرابها ؛ وإنما يعبأ الاسلام بالعقيدة التى تنظم الحياة تنظيماً صحيحاً متساوقاً وافياً بالمنفعة ، قائماً بالفضيلة ، بعيداً من الخلط والفوضى .

ويقابل ضعف التربية الدينية مظهر آخر هو سبب من أكبر أسباب السقوط ، وهو ضعف التربية الاجتماعية فى المدرسة ؛ وإلى هذا الضعف يرجع سبب آخر هو تخنث الطباع واسترسالها الى الدعة والراحة ، وفرارها من حمل التبعة « المسئولية » التى هى دائماً أساس كل شخصية قائمة فى موضعها الاجتماعى .

وبذلك الضعف وذلك السقوط وضعت المرأة البغىّ العاهرة فى الموضع الطبيعى للأم ، ونزل الرجل السافل المنحط فى المكان الطبيعى للأب ، وتحللت قوى الوطن بانحراف عنصريه العظيمين عن طبيعتهما ، وجعلت فضيلة الفتيات المسكينات تتأكل من طول ما أهملت ، وأخذ سوس الدم يتركها فضائل نخرة ولا عاصم ولا دافع إلا قوة القانون وسطوته ، مادامت الفضيلة فى حكم الناس وتصريفهم قد تركت مكانها للقوانين ، ومادامت قوة النفس قد أخلت موضعها للقوة التنفيذية .

لقد قتلت روحية الزواج ، وهى على كل حال جريمة قتل ، فمن القاتل ياصاحبنا المحامى ؟

قال الشاب : هو كل رجل عزب

قلت : فما عقابه ؟

فسكت ولم يرجع إلىّ جواباً

قلت : كأنى بك قد تأهلت وخلاك ذم . . فما عقابه ؟

قال : إلى أن تبلغ الحكومة أو أن تعاقب هؤلاء العزاب ، فليعاقبهم الشعب بتسميتهم أرامل الحكومة . . واحدهم : رجل أرملة حكومة . . .

ثم قال : اللهم يسرها ولا تجعلني رجلاً بغلطتين : غلطة فى نساء الأمة ، وغلطة فى ألفاظ اللغة .

لنظا

مصطفى صادق الرافعى